فى مزارات الاسكندرية

مع الشيخ الخالدى

للدكتور عبد الوهاب عزام

لقيت الشيخ العلامة خليلا الخالدى فى الأسكندرية ، ففرحت بمقدمه إلى هذه المدينة ، وكنت أحسبه لا يعرف كثيراً من مشاهدها وأخبارها . جلسنا نتحدث والشيخ إذا ترك لشأنه لم يتجاوز حديثه الكتب والمؤلفين ومعاهد العلم ودور الكتب . فلما تحدث عن خطوط العلماء الجيدة والرديئة — وقد ذكرت هذا فى مقال سابق — قال : وكان الطرطوشى من أصحاب الخطوط الرديئة . فلما ذكر الطرطوشى وهو من علماء الأسكندرية نقلت الحديث إلى علماء هذه المدينة ؛ فإذا الشيخ عالم بأخبارهم خبير بمزاراتهم . ذكر من المحدثين والعلماء عبد الرحمن بن هرمز والسِّلَفى والقاضى سند وابن المنيّر . وذكر من الصوفية أبا العباس المرسى والبوصيرى والأسمر وياقوت العرش . وتواعدنا يوماً نزور فيه هؤلاء الكبراء

وتلاقينا يوم الإثنين سادس رجب (٢١ أغسطس) ، وكان معنا الأستاذان عبد الفتاح عزام وعبد الغفار الطنطاوى . فذهبنا صوب الميناء نسأل عن عبد الرحمن بن هرمز حتى وقفنا على مسجد صغير فى أحد جوانبه حجرة يتوسطها قبر يقول الناس إنه لابن هرمز ، ورأينا لوحاً على الجدار كتب فيه أن هذا قبر عبد الرحمن ابن هرمز المتوفى سنة سبع عشرة ومائة . قال الشيخ : وهو ممن روى عن أبى هريرة . قلت : بل هو من واضعى علم النحو ومن تلاميذ أبى الأسود الدؤلى . قال ابن الأنبارى :

وأما الأعرج فهو أبو داود عبد الرحمن بن هرمز الأعرج . وكان مولى لمحمد بن ربيعة بن الحارث بن المطلب . وكان أحد القراء عالماً بالعربية وأعلم الناس بأنساب العرب . وخرج إلى الإسكندرية وأقام بها إلى أن مات سنة سبع عشرة ومائة

ونقل السيوطى عن الزبيدى أنه كان من أول من وضع العربية . ثم سرنا إلى مسجد آخر صغير فألفينا فى حجرة متصلة به قبرين كبيرين كتب على أحدهما : أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد النهرى الطرطوشى المتوفى سنة ٥٢١ . قال الشيخ : له كتاب البدع وهذا الكتاب وكتاب البدع لابن وضاح مأخذ كتاب الاعتصام للشاطبي صاحب الموافقات . قال وبين وفاة الطرطوشى وابن رشد الكبير شهران أو ثلاثة

أقول : هو أحد علماء المسلمين الأعلام ينسب إلى طرطوشة من بلاد الأندلس نشأ بها وطلب العلم فى البلاد الأندلسية ، أخذ عن أبى الوليد الباجى وابن حزم . ورحل إلى المشرق سنة ست وسبعين وأربعمائة وحج ولقى شيوخ العراق وأقام بالشام زمناً ودرس بها . وله مؤلفات أعظمها سراج الملوك

ونقل ابن خلكان عن كتاب الصلة لابن بشكوال أنه : « دفن فى مقبرة وعلة قريباً من البرج الجديد قبلىّ الباب الأخضر فى الاسكندرية »

والقبر الذى بجانب قبر الطرطوشى كتب عليه أنه قبر محمد الأسعد . ولست أدرى من هو

تركنا مسجد الطرطوشى لنزور اثنين من جلّة العلماء القاضى سند والحافظ السِّلَفى ، فدُللنا على مسجد صغير جداً فإذا قبر بجانب جداره الغربى علّق فوقه لوح كتب فيه أنه قبر القاضى سند بن عنان الأزدى المتوفى سنة ٥٤١ هـ . قال الشيخ الخالدى : وهو شارح المدونة فى فقه الإمام مالك . وقرأت فى حسن المحاضرة أنه « تفقه بالطرطوشى وجلس فى حلقته بعده وانتفع به الناس وشرح المدونة وكان من زهاد العلماء وكبار الصالحين ، فقيهاً فاضلاً مات بالاسكندرية سنة إحدى وأربعين وخمسمائة »

وسألت أين قبر الحافظ السلفى فأشار خادم المسجد إلى موضع بجانب سارية أمام المنبر وقال : قد سوّى القبر بالأرض ليتسع المكان للصلاة . قال الخالدى وكذلك رأيت فى مساجد المغرب يصلى الناس على بلاطات تحتها قبور

والحافظ السِّلَفى ولد فى أصفهان حوالى سنة ٤٧٥ وشغل بالحديث ورحل فى طلبه وورد بغداد وأخذ اللغة عن الخطيب التبريزى . وقدم ثغر الإسكندرية سنة إحدى عشرة وخمسمائة وأقام بها أكثر من ستين سنة حتى توفى سنة ٥٧٦ . وقصده الناس من مصر وغيرها يأخذون عنه وذاع صيته فى الآفاق . وبنى له العادل وزير الظافر الفاطمى مدرسة فى الإسكندرية وبقيت تعرف باسمه زمناً طويلاً ودفن فى مقبرة وعلة أيضاً

وكانت مقبرة وعلة مقبرة كبيرة بالأسكندرية دفن فيها كثير من العلماء . وسمعت من الشيخ الخالدى ثم قرأت فى رحلة

ابن رشيد رواية عن النجيبي : « وكان شيخنا الحافظ السلفي رحمه الله يقول لا أعلم في البلاد التي تطوفتها تربة جمعت قبور ثلاثة أئمة في ثلاثة مذاهب إلا التربة التي بمقبرة وعلة ، وقبور الأئمة الثلاثة في الثلاثة المذاهب بالمقبرة المذكورة متلاصقة : قبر أبي الخطاب الشافعي ، وقبر أبي بكر الطرطوشي المالكي ، وقبر أبي بكر محمد بن ابراهيم الحميني » (يعني الحنفي على عادة الأندلس في النسبة إلى أبي حنيفة)

وقرأت في رحلة ابن رشيد أيضاً :

« زرنا بالأسكندرية حماها الله تعالى قبر الإمام الزاهد المحدث آخر الحفاظ بقية المحدثين أبي الطاهر السلفي داخل باب الأخضر على مقربة منه وله سنام كبير عال ، وعلى مقربة من قبر الزاهد الفقيه الإمام أبي بكر الطرطوشي رحمه الله ، وعلى قبره مكتوب : توفي الإمام الزاهد أبو بكر محمد بن الوليد الفهري في جمادى الآخرة سنة ٥٢٠

وبمقربة من الجدار الغربي قبر يقال إنه قبر عبد الرحمن ابن هرمز الأعرج رحمه الله » اهـ

وسرنا بعد إلى جامع المنير فراقنا جمال هندسته ونقشه وتهللت وجوهنا وانبسطت أنفسنا لمدخله حتى قلت: حبذا جلسة طويلة في هذا المسجد الطويل . وزرنا ضريح الشيخ ابن المنير وهو في جانب من المسجد عليه قبة شاهقة

وابن المنير هو عبد الواحد بن شرف الدين بن المنير . قال السيوطي نقلاً عن ابن فرحون : كان شيخ الاسكندرية ويلقب بعز القضاة فاضلاً أديباً عُمّر وانتفع به الناس ، أخذ الفقه عن عمّيه ناصر الدين وزين الدين ، وألف تفسيراً في عشرة مجلدات» (لعله يريد تفسيره المسمى الانتصاف من صاحب الكشاف)

ولد سنة ٦٥١ وتوفي سنة ٧٣٦

ثم قصدنا إلى زيارة الصوفية فزرنا أبا العباس المرسي ، وقبره الآن تحت المسجد العظيم الرائع الذي تشيده وزارة الأوقاف الآن ويرجى إتمامه قريباً . وهو أبو العباس أحمد بن عمر الأنصاري من كبار الصالحين ، وأكبر أصحاب أبي الحسن الشاذلي . توفي سنة ٦٨٦

وعلى مقربة منه قبر العالم الكبير عثمان ابن عمر المعروف بابن الحاجب أحد أئمة العلماء المصريين في القرن السابع . ولد بإسنا في العقد الثامن من القرن السادس وتوفي بالإسكندرية سنة ٦٤٦ . وله مصنفات في الفقه والأصول . وأما مصنفاته في النحو فقد طبقت شهرتها الآفاق وعدت من أمهات كتب العربية . وحسبك في النحو الكافية وشرحها وفي الصرف الشافية وشرحها

لم نستطع الوصول إلى قبره إذ حالت دونه العمارات القائمة في جامع أبي العباس . قال ابن خلكان : ودفن خارج باب البحر بتربة الشيخ الصالح ابن أبي أسامة

وخرجنا بعد زيارة أبي العباس فمررنا باثنين من كبار الصوفية : المكين الأسمر عبد الله بن منصور الإسكندراني شيخ القراء بالإسكندرية في وقته . مات سنة ٦٩٢

وقال ابن رشيد : « الشيخ المقرئ المجود مكين الدين أبو محمد عبد الله بن منصور بن علي ويلقب بالمكين الأسمر أحد الصلحاء الفضلاء ، وهو المتصدر لإقراء القرآن بالأسكندرية . قرأت عليه بدكان منزله ـ عمره الله ببقائه ـ ضحا يوم السبت الحادي والعشرين لجمادى الآخرة من عام أربعة المذكور ، جميع المجالس الخمسية السلمانية التي أملاها الحافظ أبو طاهر السلفي الخ . »

وبجانب المكين قبر لياقوت العرش أحد الصالحين . وهو ياقوت بن عبد الله الحبشي العارف تلميذ أبي العباس المرسي . وكان الناس يقصدونه للدعاء والتبرك . مات بالإسكندرية ٧٣٢ . قال الشيخ الخالدي : ذكره ابن عطاء الله في تآليفه

وأما ابن عطاء الله السكندري صاحب الحكم فهو أحمد بن محمد ابن عبد الكريم الجذامي الاسكندراني . كان صوفيًا على طريقة الشاذلية ، جامعاً لعلوم شتى من تفسير وحديث ونحو وأصول وفقه ، وأخذ عن أبي العباس المرسي ، وأخذ عنه التقي السبكي ، وله كتب منها كتاب الحكم وهو من أروع ما أثر من أدب الصوفية . وكتاب التنوير في إسقاط التدبير . وكتاب لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس ، والشيخ أبي الحسن (أبي العباس المرسي وأبي الحسن الشاذلي)

ومات بالمدرسة المنصورية بالقاهرية سنة ٧٠٩ ودفن بالقرافة

وعلى مقربة من ضريحي الأسمر وياقوت في الجانب الآخر من الشارع بناء جديد نقلت إليه بلدية الاسكندرية رفات جماعة من الصالحين كانت في قبور متفرقة في المدينة . وقد قرأت على الجدار من الخارج أسماء أحد عشر منهم . وأخبرنا الخادم أنهم تسعة عشر .

(الكلام صلة)

عبد الوهاب عزام